(ابن حميدس الصقلي زاهدا)

أ. م. د. حسن هادي نور
جامعة المثنى- كلية التربية الاساسية - قسم اللغة العربية
hasanhadi@mu.edu.iq
07801851353

مستخلص البحث:

يعد الزهد وسيلة من وسائل الوصول إلى مكارم الأخلاق, وطريقة من طرائق الكمال، عن طريق الانتصار على النفس, والتغلب عليها, وكبح جماح رغباتها, والانقطاع إلى الله وحده, وترك الدنيا وملاذها ونعيمها، ولأهمية هذا الغرض وشيوعه في الأدب العربي جاءت هذه الدراسة المتواضعة لتسلط الضوء على عوامل وأسباب رواج ظاهرة الزهد في الأندلس ومدى تأثر الأدب الأندلسي بها جاعلة الشاعر ابن حمديس الصقلي ميداناً لها فكانت تحت عنوان ((ابن حمديس الصقلي زاهداً))، وقد خلصت هذه الدراسة الى جملة من النتائج منها إن زهد ابن حمديس لم يكن ناشئاً عن عقيدة اعتقدها أو منهجا اختطه لنفسه, وإنَّما هو من الحالات التي تحدث للاهين حين تتقدم بهم السن ويصبحون على حافة القبر، كما أوضحت أنَّ بواعث وأسباب الزهد عديدة لا تقتصر على الوازع الديني والتربية الإسلامية، كما بينت ان شعر شاعرنا قد تلون بتلون أطوار حياته وما مرَّ به من أحداث.

الكلمات المفتاحية: ابن حمديس ، الزهد.

تقـديم :

يعد الزهد وسيلة من وسائل الوصول إلى مكارم الأخلاق, وطريقة من طرائق الكمال عن طريق الانتصار على النفس, والتغلب على ميولها, وكبح جماح رغباتها, والانقطاع إلى الله وحده, وترك الدنيا, وملاذها ونعيمها ؛ إذ ((إنَّ اللجوء إلى العزلة والهرب من فتن الدنيا وشرورها مطلبان زهيدان وصوفيان وبدونهما لا تتحقق قيمة الزهد او التصوف))[1]، فالزاهد لا يهنأ له عيش ولا يصفو له مشرب إلاَّ بالفرار بدينه إلى خالقه جلّ وعلا, فلا قيمة للحياة الدنيا عنده, فالمقيم فيها راحل, ونعيمها زائل, فهي ((في شرع الزاهد ليست إلاَّ قنطرة عبور يلجها إلى حياة اخرى))[2], فغاية ما يتمنّاه هو الفوز بالآخرة ونعيمها الدائم . وللزهد مراتب ودرجات, فقد وضعه الإمام احمد بن حنبل (ت 241هـ) في مراتب ثلاث ((الأولى ترك الحرام وهو زهد العوام, والثانية ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص, والثالثة ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى))[3], فهو بقوله هذا يشير إلى أنَّ السلوك الزهدي الذي يمارسه الزاهد ليس سلوكاً تعبدياً متمثلاً في الإنقطاع إلى الله تعالى والعبادة فحسب, وإنَّما يقوم على تذليل النفس وتطهيرها من الموبقات وكبائر المرديات, فالزهد أحوج ما تكون النفوس إليه عندما يبرح بها الألم, وتضيق بها الحياة وتتكدس حولها الهموم فتلجأ إلى الدين تبغي منه الحماية, وترجو في رحابه الاستقرار, والنفس البشرية تنزع تلقائياً إلى قوة عليا, كلّما مسّها الضرّ, أو هددتها الأخطار[4] .

وبعد هذا العرض الموجز للزهد ومراتبه, ولأهمية غرض الزهد وشيوعه في الأدب العربي, جاءت هذه الدراسة المتواضعة لتسلّط الضوء على أسباب رواج ظاهرة الزهد في الأندلس, ومدى تأثر الأدب الأندلسي بها جاعلة الشاعر ابن حمديس الصقلي ميداناً لها. واقتضت طبيعة البحث في ان تكون في تمهيد ومحورين فخاتمة بأهم النتائج، تناول التمهيد مفهوم الزهد والعوامل التي ادت إلى انتشار الاتجاه الزهدي في الأندلس.

أمـّا المحـور الأول فقـد أخـتص بالحـديث عـن حيـاة الشـاعر ومراحـل شـعره علـى حـين درس المحور الآخر بواعث وأسباب الزهد عند ابن حمديس الصقلي.

وفي الختام اقول : إن كان ما قدمتُ فيه من الصواب فذلك من فضل الله, وإن كان فيه نقص فمن عندي, وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

تمهيـــد :

لقد ظهر الاتجاه الزهدي في الشعر الأندلسي عند ابن أبي زمنين, وكان كثيراً ما يلتبس بالشعر التعليمي أو يعبر بدوره عن دوافع الشيخوخة وما ينتج عنها من خوف الموت وما بعده[5]، غير أنه سرعان ما انتشرت موجة الزهد في الأندلس انتشاراً ملحوظاً فهو ((تعبير عن موقف شخصي ازاء الحياة, وغالبا ما يصدر عن خوف من الموت))[6]، ويبدو أنَّ سبب انتشاره يعود لعوامل عدة, لعلّ الاضطراب السياسي والصراع القبلي اللذان ظلت تعاني منهما البلاد ردحاً طويلاً من الزمن والثقافة الدينية التي تثقف بها شعراء الزهد, وارتفاع موجة اللهو والزندقة وما ترتب عليهما من اندفاع طائفة كبيرة من الشعراء ليضمروا انفسهم في تيارها الدافئ تعد من أهم عوامل انتشاره في الأندلس[7] . وقد ((يحرك اليه الشيب والعجز, وكثيراً ما يستغفر الشعراء من ذنوبهم التي اقترفوها ابان شبابهم))[8], في حين أرجع نيكلسون عوامل ظهور نزعة الزهد ((إلى عاملين هامين* : الأول : المبالغة في الشعور بالخطيئة, والثاني: الرعب الذي استولى على قلوب المسلمين من عقاب الله وعذاب الآخرة))[9], والحقيقة ((إنَّ وجود التيار الديني يتفق مع المنطق الطبيعي لتطور الأشياء, فحيثما وجد اللهو والمجون, وجد الزهد والورع, وتلك سنة الحياة وطبيعتها في كل زمان ومكان))[10], فصار شعراء الزهد تبعاً لذلك في جو روحاني صوفي فيه نفور من الدنيا, ورفض لزخرفها, واحساس عميق بما بعدها, وكان لهذا كله أثره القوي على نفوسهم, وكان لهذا التأثير النفسي تأثيره الواضح في الشعر ما دام الشعر هو المعبّر الصادق عما في خبايا النفوس, وما تختلج به الصدور ((فكان الشعراء ينظمونه بدافع ديني أحياناً وبدافع تقليدي أحياناً أخرى على أن من الشعراء من نظمه وقد شعر حقا بندمه وأدرك غرور الدنيا, فأخذ يذكر ذنوبه طالباً مرضاة الله وعفوه))[11], فالزهد في ((حقيقته دعوة إلى العزوف عن متاع الدنيا وملذاتها, وتجنب مغرياتها وبهرجتها, والتمسك بالعمل الصالح والسلوك القويم, وتأدية فرائض الله, واقتناع الذات إنَّ الفناء لاحق كل شيء, وان العمر مهما طال سينتهي ...))[12], وإذا كان الناس يدركون أنَّ الحياة ذاهبة والعمر فان ((فإنَّ فلسفتهم ازاء هذه الحقيقة ستتفاوت وبذلك ستختلف نظراتهم فيما يجب أن يفعلوه فمنهم من يتخذ الحياة القصيرة لهواً وعبثاً ومجوناً, ومنهم من ينطوي على نفسه ويطهرها من أدران الحياة المادية, ويتطلع إلى حياة خالدة باقية))[13].

إنّ الإنسان في مرحلة الشباب مرحلة القوة والحيوية والنشاط تجذبه الماديات وتغريه مظاهر الدنيا المزيفة فيصرف جُلَ نشاطه في تحصيلها, وما أن يتقدم به العمر ويقف على عتبة الكبر والشيخوخة, ويحس ضعف الهرم, نراه يقف من هذه الحياة ومظاهرها موقف المتأمل المتفكر فيها، محاولاً إيجاد أسس وقواعد يسير عليها في حياته الجديدة فلا يلبث أن يجد نفسه قد زهد في الدنيا[14] .

ان الشعور بتفاهة الحياة وسرابها الخادع دفع الشاعر إلى الاستعانة بالله ليأخذ بيده ويغفر ذنوبه, وينجيه من التجربة الصعبة, فان ثقته الكبيرة بعطف الله وكرمه ورحمته دفعه إلى الجرأة في التقرب منه وعرض حاجته عليه بعد أن فقد الأمل بالحياة وما فيها.

المحور الأول: حياته ومراحل شعره:

ولد شاعرنا عبد الجبار بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي في جزيرة صقلية عام 447هـ في آخر حكم العرب لهذه الجزيرة, وبالتحديد في مدينة سرقوسة الواقعة على الساحل الشرقي من جزيرة صقلية فهو من أصل عربي أزدي نشأ وترعرع في عائلة محافظة فقد عُرف جدهُ وأبوه بقوة الإيمان،

وشدة التقوى[15], ومن خلال دراستنا توصلنا إلى معرفة طباعه وأخلاقه وميوله ومزاجه وسلوكه فهو إنسان مرهف الحس, وقور النفس, رقيق الشعور كان يميل إلى اللهو في شبابه, ولكن أمام أحداث وطنه الجسام, وغربته وتقدمه في السن أقلع عن اللهو, ومال إلى الجد والصرامة, ويمكننا تقسيم شعر ابن حمديس على مرحلتين: **فالمرحلة الأولى** هي مرحلة الشباب التي تكونت فيها النواة الأولى لشاعريته إذ يلحظ في هذا الشعر ظهور قوة الشباب واندفاعه وحرارته وحدة شهواته ؛ إذ أقبل ابن حمديس في هذه المرحلة على الشعر معتمدا على ذوقه, وعلى طبيعة جزيرته الساحرة التي أمدته بالصور الأخاذة والأوصاف الفريدة, فقد عاش ابن حمديس بعد أن شب عن الطوق حياة اللهو والمجون كبني عصره فأدلى بدلوه مع الغواة, وشرب الخمر حتى الثمالة, فحين ذهب إلى خمارة يعب الخمر وصف ذلك بقوله [16] :

(الرمل)

وَأَدْرِ حَمْـرَاء يَسْـرِي لُطْفًـا	سُكَّرَهَا مِنْ سُمِّهَا فِي كُلِّ صَاحْ
لا يَعْرَنَـكْ مِنْهَـا خَجَـلٌ	إِنَّهَـا تُبْدِيـهُ فِـي خَـدٍّ وَقَـاحْ
فَاسْـقِنِي عَـنْ أَذَنِ سُـلْطَانْ اَلْهَـوَى	لَـيْسَ يَشْـفِي اَلـرُّوحَ إلا كَـأْسٌ رَاحْ
وَانْتَظَـرَ لِلْحُلْـمِ بَعْـدِي كُـرَةَ	كَـمِّ فَسَـادٍ كَـانَ عُقْبَـاهُ صَـلاحْ
فَالْقَضِـيبِ اِهْتَـزَّ اَلْبَـدْرُ بَـدَا	وَالْكَثِيـبُ اِرْتَـجَّ وَالْعَنْبَـرُ فَـاحْ
وَالثَّرَيَّـا رَجَّـحَ اَلْجَـوُّ بِهَـا	كَـابْنِ مَـاء ضَـمِّ لِلْـوَكْرِ جَنَـاحْ
وَكَـأَنَّ اَلْغَـرْبَ مِنْهَـا نَاشِـقٌ	بَاقَـةٍ مِـنْ يَاسَـمِينْ أَوْ أَقَـاحْ
وَكَـأَنَّ اَلصُّـبْحَ ذَا اَلأَنْـوَارِ	مِنْ ظُلَمِ اَللَّيْلِ عَلَى اَلظَّلْمَاءِ لاحْ
فَاشْـرَبْ اَلـرَّاحْ وَلا تَخْـلُ يَـدًا	مِـنْ يَـدِ اَللَّهْـوِ غُـدُوًّا وَرَوَاحْ
فِـي حِـدِيقْ غَـرْسِ اَلْغَيْـثِ بِـهِ	عَبَـقُ اَلأَرْوَاحِ مُوشِـي اَلْبِطَـاحْ

فهيامه بالخمرة شديد وعشقه لها في صعود, ويتضاعف اقباله عليها فيشربها ((عند طلوع الفجر في روضة فواحة الزهر مخضلة, ويشربها قبل ان ترتشف الشمس ريق الغوادي من ثغور الاقاح, ويشربها عند المغيب والشمس تلبس من الغيم نقاباً, ويشربها على ايماض برق كأنَّه نور مصباح شب في سواد الليل))[17], فابن حمديس يقبل على الطبيعة ((بثقافته الشعرية فيتاملها ويستخرج من المعاني أروعها, فاذا بقامات الملاح بعض نباتها وإذا بالنشوة تسري في أغصانها وبالفتنة تأسر بصر الشاعر, فيبدو عالم الطبيعة في حركة وزينة وطرب))[18] ويبدو أنَّه حاول نسيان الآلام التي عصفت به نتيجة غربته وضياعه بالانغماس في اللهو والمجون والمتعة, ومشاهدة حفلات الرقص التي غصت بها

قصور((إشبيلية)) وقرطبة, وفي إحدى مجالسه تلك نعم بمغنية ذات صوت شجي تعزف على عود بأنغام ساحرة وشرب الخمرة فاسكره النغم والخمر والجمال، فقال يصور ذلك المجون بأسلوب حواري[19]:

(الرمل)

فَاوَضَتْ فِي اَلْوَصْلِ عَيْنِي عَيْنُهَا فَازْدِهْتْ عَجَبًا وَقَالَتْ : مَا لَدَيْكَ ؟

أَعْلِيلٌ أَنْتَ ؟ مَاذَا تَشْتَهِي ؟ قَلْتْ : قَطْفِي بِيَدِي رِمَانْتِيكْ

فَانْثَنَتْ كِبَرًا وَقَالَتْ : وَيْلَنَا أَوْ هَذَا كُلُّهُ تَطْلُبُ وَيَكُ ؟

أَنَا شَمْسٌ وَبَعِيد فَلَكِيّ وَضِيَائِي نَافِر مِنْ رَاحَتَيْكَ

لَوْ بَدَا أَمْرُكَ لِي مِنْ قَبْلِ ذَا مَا رَأَتْ نَاظِرَتَي نَاظِرَتِيكْ

إلى جانب الشعر الماجن الذي يتجلى فيه مجون ابن حمديس تبدو عنايته بتصوير الطبيعة اللامعة فتتفتح مشاعره لجمالها[20] وهو ما نراه جلياً من خلال قصيدة وصفته ضمنها دعوة لكل من يرغب:

(السّريع)

اِشْرَبْ عَلَى بِرْكَةٍ نِيلُوفَرْ مُحَمَّرَةً اَلنَّوَّارَ خَضْرَاء

كَأَنَّمَا أَزْهَارُهَا أَخْرَجَتْ أَلْسِنَةَ اَلنَّارِ مِنْ اَلْمَاءِ

هذه الأوصاف وغيرها كما يقول أحد الباحثين ((ترسم لنا فتنة ابن حمديس بالطبيعة واقباله على مباهجها, وهو بذلك يعبر عن بيئته الجميلة التي تنقل في أفيائها وعمّا اعتاد عليه شعراء عصره من الإقبال على استجلاء محاسنها والتنزه في رياضها))[21] .

إنَّ ما تقدم ذكره من نماذج شعر ابن حمديس في هذه المرحلة يبين لنا ولوع الشاعر بالحديث عن الخمر ومجالس الطرب واللهو, وكأنَّها صفة من صفات شخصيته, في حين يرى أحد الباحثين خلاف ذلك فهو يعتقد ((أنّ كثرة كلامه في الخمر ومجالسه, والعشق وآثاره, تدل على أنَّه يميل إلى شيء من المجون, ولكنه كان اقل من غيره في ذلك, فإنَّ الإنسان لا يكاد يرى للتهتك أثراً في كلامه ولولا أنَّه عاش في هذا العصر, وفي حاشية المعتمد ابن عباد, لقلنا أنَّه كان بعيداً عن اللهو والمجون, ولحملنا شعره الذي جاء في هذا على نوع من الصناعة والخيال))[22] .

أمَّا المرحلة الأخرى فهي مرحلة الهدوء والدعة ثم الندم وإعلان التوبة . وهذه المرحلة تبدأ بسقوط ((سرقسطة)) في يد العدو ونفي أميره (ابن عباد) الذي كان يبعث الأمل دائماً في نفس الشاعر باسترجاع الجزيرة من يد الغاصبين وفي هذه المرحلة سيطرت على شعره أنغام الحزن, والإحساس بالغربة التامة ففوضى الحياة وكثرة الحروب دفعت فريقاً من الأندلسيين إلى ((العزلة وإيثار الدين والزهد في الحياة, والإلتجاء إلى الله تعالى بعيداً عن صخب الحياة ونفاقها))[23] .

فهذا ابن حمديس عندما بلغ السبعين من عمره سخط على الدنيا, وألقى باللوم والتقريع على غدرها؛ لأنَّها سلبت منه قوته وشبابه وألبسته ثياب المشيب بأهواله وأسقامه[24]:

(المتقارب)

وَعَظَـتْ بِلِمَّتَـكْ اَلشَّـائِبه وَفَقْـدِ شَـبِيبَتِكَ اَلذَّاهِبَـه

وَسَبْعِينَ عَامًا تَرَى شَمْسَهَا بِعَيْنِـكَ طَالِعَـةً غَارِبَـه

فَوَيْحَـكَ هَـلْ عَبَّـرَتْ سَـاعَةً وَنَفْسُكَ عَنْ زَلّةٍ رَاغِبَه ؟

فَرَغَـتْ لِصُنْعِكَ مَـا لا يَقِيـكَ كَأَنّـكَ عَامِلَـةً نَاصِـبَه

وَغَرَّتْـكَ دُنْيَـاكَ إذْ فَوَّضَـتْ لَيْـكَ أَمَانِيهَـا اَلْكَاذِبَـه

أَصَـاحِبُهُ خَلّتُهَـا ؟ أَنّهَـا بِأَحْدَاثِهَا بِئْسَتْ اَلصَّاحِبَه

أَمَّا سَلَبَتْ مِنْكَ بِرَدِّ اَلشَّبَابِ فَهَلْ يَسْتَرِدُّ مِنْ اَلسَّالِبَةِ ؟ ؟

من هنا بدأ أبن حمديس ((زهده)) في الحياة, غير أن زهده لم يكن ناشئاً عن عقيدة اعتقدها, أو منهجاً اختطه لنفسه, ولكن قل إنَّها من الحالات التي تحدث للاهين حين تتقدم بهم السن ويصبحون على حافة القبر, ففي هذه السن يتوبون عن الذنوب ويؤدون أركان الإسلام تأدية تامة, فشعر أبن حمديس في هذا المجال تصوير لحالات الولوج إلى محراب الله, والقرب من حضرة القدس الربانية واللجوء إليه سبحانه مبتهلاً ومستغفراً فنراه يقول وهو يبكي ويستغفر ربه[25] :

(الخفيف)

يَـا ذَنُـوبِي ثَقُلَـتْ وَاَللَّهُ ظَهْـرِي بَـانَ عُـذْرِيٌّ فَكَيْـفَ يَقْبَـلُ عُـذْرِي ؟

كُلّمَـا تَبُـتُّ سَـاعَةً عُـدَّتْ أُخْـرَى لِضُرُوبٍ مِـنْ سُوءٍ فِعْلِـيٍّ وَهِجْرِيٍّ

ثَقُلَـتْ خُطّـوَتِي وُفُـودِي تَفْتَـرِي يْهَـبْ اَللّيْـلُ فِيـهِ عَـنْ نُـورٍ فَجْـرِيٍّ

دَبَّ مَـوْتُ اَلسُّـكُونِ فِـي حَرَكَـاتِي وَخَبَـا فِـي رَمَـادِهِ حُمْـر جَمْـرِي

وَأَنَـا حَيْـثُ سَـرَتْ آكِـلَ رِزْقِـي غَيْـرُ أَنَّ اَلزَّمَـانَ يَأْكُـلُ عُمْـرِي

لّمَـا مَـرَّ مِنْـهُ وَقْـتٍ يَـرْبَحُ مِنْ حَيَاتِي وَجَدَتْ فِي اَلرّبْحِ خِسْرِي

يَـا رَفِيقًـا بِعَبْـدِهِ وَمُحِيطًـا عِلْمُـهُ بِـاخْتِلَافِ سِـرِّيٍّ وَجَهْـرِي

مَـلَّ بِقَلْبِـي إِلَـى صَـلاحِ فَسَـادِي مِنْـهُ وَأَجْبَـرَ بِرَأْفَـةٍ مِنْـكَ كَسْـرِيٌّ

وَأَجَّرَنِـــي هَمًّـــا جَنَـــاهُ لِسَـــانِي وَتَنَاجَـــتْ بِـــهِ وَسَـــاوِسُ فِكْـــرِيّ

فابن حمديس في الأبيات السابقة يتحدث مع نفسه حديثاً فيه اعتراف كامل بما اقترفت يداه وأنَّ نفسه الأمارة بالسوء كلّما أقلعت عن الذنوب سولت له نفسه وزينت له العودة مرة أخرى إلى اقتراف المعاصي غير آبه بوعيد الله وانذاره, رغم تقدمه في السن.

فزهد ابن حمديس زهد من تملكه الضجر بعد أن مارس الحياة وخبرها, وبعد أن طواه الزمان وبدل خلقه كله وبراه عضواً فعضواً، وتتسم نظرته إلى هذه الحياة والتبرم منها بالتشاؤم(*) القاتم, ولكنها على أي حال, مستمدة من الواقع الذي يعيشه, وإنَّما دوره فيه دور المسجل للملاحظات الدقيقة التي يستخلصها من معاشرة الناس والاختلاط بهم, فهو لم يختلق شيئاً من الخيال وإنَّما استمد الحقائق من الواقع مهما بدا مراً كئيباً، وحين تقدمت بابن حمديس السن وخطه الشيب رمز الوقار تأسف على أيام الشباب والفتوة, وليالي اللهو والصبوة, ولكن الحر هو الذي لا تهزه الخطوب[26] :

(الطويل)

أَبِيعُ مِنْ اَلأَيَّامِ عُمْرِي وَأَشْتَرِي ذُنُوبًـا كَـأَنِّي حِـينَ أَخْسَـرُ أَرْبَـحُ

هَلَّا أَذْبَتْ اَلْقَلْبُ مِنْ حَرْقِ اَلأَسَى وَصَـيَّرَتْهُ دَمْعًـا مِـنْ اَلْعَـيْنِ يَسْـفَحُ

وَأَنّى وَفِي عُقْبَى اَلشَّبَابِ عُقُوبَة أَسَرِ بِهَا – بِئْسَ اَلسُّرُورُ – وَأَفْرَحُ

ولا يخفى علينا ما في الأبيات من رنات الأسى واللوعة على علو السن وفوات الشباب وانقضاء اللذات, مع ما يبدو فيها من تصنع الجزع من حلول المشيب والاعتراف بما يأتي به ذكر الليالي والأيام من خبرات، وتجارب وفترة الشيخوخة بما فيها من الآلام أو ما أحدثته من الصدمات النفسية, أثّرت في الشاعر وجعلته يتفجع على نفسه مصوراً هذا التفجع بصور ومعاني مختلفة حسب حالته النفسية, وسكون الألم عنه أرشدته غربته إليه[27] :

(الطويل)

فَعَوَّضَتْ شَيْبًا مِنْ شَبَابِيٍّ كَـأَنّنِي تَوَلّيْتُ عَنْ ظِلِّ بِرَغْمِـي إِلَـى اَلشَّمْسِ

وَقَطْعِيٍّ بِعَيْشٍ بَعْدَ سِتّينَ حُجَّـةً أَرَى فِيـهِ لَبْسًـا وَالتَّخَـوُّفُ فِـي اَللّبْسِ

ذُنُـوبِي تُنَمِّـي كُـلَّ يَـوْمٍ تَكَسُّـبًا فَيَوْمَيْ بِهَا فِي اَلْيَوْمِ أَثْقَلَ مِنْ أَمْسِي

أَلا آمِـنٌ اَلـرَّحْمَنِ خَـوْفِي بِعَفْـوِهِ فَـإِنّي مِـنْ نَفْسِـيٍّ أَخَـافَ عَلَـى نَفْسِـي

فهنا يبرز لنا لون آخر من الزهد مقرون بالتوبة, ويصدر عن الخوف من الموت والعذاب ويحرك إليه التقدم بالسن والإحساس بالأجل, وأصحاب هذا الزهد شغلوا في شبابهم بملذات الحياة ولهوها, واكتشفوا غفلتهم وندموا على ما اقترفوا في شبابهم وزهدوا بالدنيا وأخذوا يتباكون على ما فعلوا من ذنوب ومعاص ويتوسلون الى الله تعالى عسى أن يغفر زلاتهم, ويتقبل توبتهم, وهو ما أشار إليه ذلك المشهد الذي رسمه البيت الأول من استعاضة الشباب بالشيب وسرعة ذلك، وكأن شاعرنا قد انتقل من الظل إلى الشمس مفصحاً أن هذا الإنتقال لم يحصل بإرادته وإنما جاء رغماً عنه، وربما أراد شاعرنا بالظل - هنا - سواد الشعر، الدال على مرحلة الشباب وبـ (الشمس) (الشيب)، الدال على مرحلة الشيخوخة، فضلاً عن ذلك فقد جاء البيت الثالث ليصور لنا ثقل ما تكسبه نفسه من ذنوب في كل يوم، ثـّم أتى البيت الرابع محملاً بفيوضات الإستعطاف والتفرغ إلى الله أن يامن خوفه راجياً عفوه، والشاعر ابن حمديس الصقلي خير من يمثل هذا الاتجاه, ومن شعره في ذلك هذه الأبيات[28] :

(الرمل)

مَـا اَلّـذِي أَعْـدَدْتُ لِلْمَـوْتِ فَقَـدْ ... قَـدْرُ اَلْمَـوْتِ بِـلا شَـكٍّ عَلَيْـكَ

أَذْنُوبَـا كَـاثِرتْ عَـدِّ اَلْحَصَـى ؟ ... بِئْسَ مَا اِسْتَكْثَرَتْ مِنْ كَسْبِ يَدَيْكَ

نْـسَ مَـا يَسْـمَعُ مِـنْ تَعْظِيمِهَـا ... مِلْكًـا اَلْقَبْـرَ بِـهِ مِـنْ مَلِكَيْـكَ

أَيْ خُطَـب فَـادِحٍ فِـي رَقَـدَةٍ ... يُـوقِضْ اَلْحَشْـرُ إِلَيْهَـا مُقْلَتَيْـكَ ؟

وَصِـرَاط لَسْـتَ بِالنّـاجِي إِذَا ... وَطِئَتْـهُ زَلّـةٌ مِـنْ قَـدَمَيْكَ

فَلَـكَ اَلْوَيْـلِ مِـنْ اَلنّـارِ إِذَا ... مُقِلّـة اَلـرَّحْمَنِ لَـمْ تَنْظُـرْ إِلَيْـكَ

نراه - هنا- قد افتتح أبياته بالسؤال مخاطباً نفسه التي جعلها مثالاً للآخرين بخطاب استفهامي مستفهماً إياها عمّا أعدّته من زاد إذا دنا منها الموت الذي لابدّ منه؛ إذ يجيء الاستفهام محملاً بشحنة توبيخية؛ لما حملته تلك النفس من ذنوب بلغت عدد الحصى ذامّاً فعلها ذاك من خلال تكرار فعل الذم (بئس) فضلاً عن دلالة (التعظيم) التي اضفاها الاستفهام في البيت الرابع (أي خطب فادح...) خاتماً مقطوعته بالدعاء على تلك النفس بالويل من النار إذا حُرمت من الرحمة الإلهية.

المحور الآخر: بواعث الزهد عند ابن حمديس الصقلي.

للزهد بواعث وأسباب عديدة لا تقتصر على الوازع الديني والتربية الإسلامية, فقد يأخذ طابع رد فعل للعصر أو لظروف المرء الخاصة, أو يأخذ سمة الرفض الفردي لموقف معين يكون اتباع الزهد فيه وسيلة عن ذلك الرفض, فهذا ابن حمديس بعد إن كان يصف الخمر في شبابه قائلاً[29] :

(الطويل)

وَوَرْدِيَّةَ فِي اَللَّوْنِ وَالْفُوحْ شَعْشَعَتْ فَأَبْدتْ نُجُومًا فِي شُعَاعِ مِنْ اَلشَّمْسِ
نُفِيَتْ هُمُومُ اَلنَّفْسِ مِنْهَا بِشَرْبَةِ دَبِيبٍ حَمَيَاهَا يَرْقَ عَنْ اَلْحِسّ
كَأَنَّ يَدِي مِنْ فِضَّةٍ فَإِذَا حَوَتْ زُجَاجَتُهَا عَادَتْ مُذَهَّبَةَ اَلْخَمْسَ

ونراه يقول نادماً في شيخوخته معلنا لتوبة والخوف من الحساب وأهواله[30] :

(الرجز)

بَيْتُكَ فِيهِ مَصْرَعَكْ وَفِي اَلضَّرِيحِ مَضْجَعَكْ
غَرَّتْكَ دُنْيَاكَ اَلَّتِي لَهَا شَرَابٌ يَخْدَعُكْ
هَمَّتْ بِحُبِّ فَارْكْ قَلَّمَا تَمَتَّعَكْ
يَضُرُّكَ اَلْحِرْصُ بِهَا وَالزُّهْدِ فِيهَا يَنْفَعُكَ
لا تَأَمَنَنَ مَنِيَّةَ إِنَّ عَصَاهَا تَقْرَعَكَ
مَغْرِبُكَ اَلْقَبْرَ اَلَّذِي يَكُونُ مِنْهُ مَطْلَعَكَ
إِنَّ فِرْقَتَكَ تُرْبَةَ فَاَللَّهُ سَوْفَ يَجْمَعُكَ
وَلِلْحِسَابِ مَوْقِفُ أَهْوَالِهِ تُرَوِّعُكَ

وقد يكون الزهد بدافع الرهبة والخشية من الموت المنتظر, ولاسيما في وقت الشيخوخة والهرم ((حينما يحس الإنسان إنَّ الحفرة الرطبة فاغرة فاها في انتظاره, فلا سبيل له حينذاك من اتباع الزهد والتضرع الى الله وتقديم العمل الصالح لأجل التهوين من حدة ملاقاة الموت, وتأمل الثواب وحسن الماب))[31], من ذلك قول ابن حمديس[32]:

(الطويل)

إِلَى كُمِّ أَرَانِي فِي هَوَى اَلنَّفْسِ خَائِضًا وَلَمِّ اِتَّقِ اَلإِغْرَاقَ مِنْهَا عَلَى نَفْسِي
وَقَدْ شَمِلَتْنِي شَيْبَةَ لَمْ أَبُتْ بِهَا فَمًا لِي فِي لَيْلِيّ وَقَدْ طَلْعَتْ شَمْسِي
غَرَسَتْ بِكَفِّي اَلْمَعَاصِيَ جَاهِدًا وَلا شَكَّ أَنِّي أَجْتَنِي ثَمَرَ اَلْغَرْسِ

إِلَــى اَللَّهِ أَشْــكُو جُمْلَــةَ اِرْتَــدِي بِهَــا وَأَصْبَحَ مِنْهَا فِي اَلذُّنُوبِ كَمَا أَمْسِي

فَيَا وَحْشَتِي مِنْ سُوءِ مَا قَدَّمَتْ يَدِي إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي اَلْقَبْرِ مِنْ رَحْمَةٍ أَنْسَى

إنّ ابن حمديس خجل مما ارتكبه من ذنوب ومعاص, حين يقف على أبواب رحمة الله, يرجو مغفرته ويلتمس عفوه؛ لأنه لا يملك المغفرة غير الله فلا راد لقضائه ولا مخالف لأوامره, ثم يطلب في تضرع وخشية وخضوع ألاَّ يخزيه الله يوم تقدم لكل امرئ صحائفه وقد سطر فيها ما قدمت يداه في الدنيا, ثم يرجو الله أن يكون أنيسه في ظلمة القبر حين يتخلى عنه الأهل والأقارب والأحباب والأصدقاء ويوسدونه التراب, ويتركونه وحده لظلمة القبر وعذابه, فإذا لم يدركه الله برحمته وعفوه فإنَّه لسيء المصير, وإلى النار مآله[33] :

(الطويل)

حَلَّلَــتْ بَيُّــومِي إِذْ رَحَلَــتْ عَــنْ اَلأَمْــسِ وَسَرَتْ وَلَمْ أَعْمَلْ جَوَادِي وَلا عَنْسِي

مَرَاحِــلَ دُنْيَانَــا مَرَاحِلَنَــا اَلَّتِــي تَرَانَــا عَلَيْهَا نَقْطَعُ اَلْعَيْشُ بِـالْخَمْسِ

وَنَحْنُ بِدَارٍ يَعْقُب اَلْخَوْفُ أَمْنَهَا وَتَذْهَبُ فِيهَا وَحْشَةَ اَلأَمْنِ بِـالأَنْسِ

لَيَــالٍ وَأَيَّــامٌ بِسَــاعَاتِهَا سَــعَتْ لِتَفْرِيقِهَا مَا بَيْنَ جِسْمِكَ وَالنَّفْسُ

وَإِنِّي وَإِنْ أَصْبَحَتْ مِنْهَا مُسْلِمًا لأَكْثَرَ قَوْلِي: لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَمْسِي

وَمِنْ حَلٍّ فِي سَبْعِينَ عَامًا كَأَنَّهُ عِلاجٌ عَلِيلٌ فِي مُوَاصَلَةٍ اَلنِّكْسْ

فَمَا فَهْمَ اَلأَشْيَاءِ بِالدَّرْسِ وَحْدَهُ وَلَكِنَّــهُ بَــدَأَ اَلــتَّفَهُّمُ وَالــدَّرْسُ

وَكَمْ حُكْمٍ فِي خَطِّ قَوْمٍ كَثِيرَةٍ وَأَفْضَلَ مِنْهَا لَمْعَةَ مِنْ سِنَّا اَلْحِسَّ

إنّ الإنسان يميل إلى ذكر الموت وأهواله, فهو يمثل الواعظ الأكبر له؛ لأنّ فيه خاتمة أعماله, ونهاية وجوده، ومن الناحية الفنية يبقى شعر الزهد ((لا يرقى في عباراته وصوره إلى مصاف الشعر وخاصة الغزل والوصف, وان بقي متنفسا لآلام الشعراء في حياتهم المضطربة ومجتمعهم المعقد))[34], أمّا بواعثه فتختلف وتتنوع, بحسب الأشخاص ومواقفهم من الحياة والناس, ومن ثم فهي تنعكس على الشعر فتعطيه طعماً ومضموناً موافقين مع تلك البواعث ومنسجمين مع تلك المواقف[35].

لقد مضت حياة ابن حمديس في شبابه لاهية ماجنة, وفي شيخوخته في عبادة صادقة وصارمة, واستغفار لما بدر منه, وتقشف وتبتل, وانصراف عن المادة, وتفرغ للروح, ومجاهدة النفس, وترويضها على التقوى والصلاح, فكلما تقدمت به السن فاضت شاعريته معبراً عن زهده في الدنيا وملذاتها، فقد اقلع عن غيه, وآب إلى رشده ورجع إلى ربه بعد أن ظلّ دهراً في الغواية مقيم, وعلى

أبواب اللهو يتردد. ويتسم شعر ابن حمديس في هذه المرحلة من حياته – أي مرحلة الزهد – بنغمة حزينة كئيبة تتمثل في حمله على نفسه وتوبيخه لها, وندمه على ما فاته في أيامه الخوالي وبكائه على ذنوبه ؛ إذ يرى أحد الباحثين أن سبب ذلك يعود إلى ((اغترابه عن وطنه, ونزوح الأعداء إليه, ووقوعه في غير قبضة أهله, من الأسباب التي أثرت في نفسه, واستولت على عواطفه, فكان يشعر بضيق, ويكره الحياة, وينحى باللوم على نفسه وينهرها, ولكنه لم يكن في ذلك فيلسوفاً, بل كان يميل إلى أمثال أفكار المتصوفة في لوم النفس, والنيل منها, ولقد كانت تملكه مع هذه العاطفة أحياناً عاطفة الندم, وتبويخ النفس, فيرى نفسه ذليلاً حقيراً, وكأنه يبكي على ذنوبه, وهو حزين كئيب))[36].

وهكذا نجد أن شعر شاعرنا قد تلون بتلون أطوار حياته وما مر به من أحداث ((فهو في بعض الأحيان نؤاسي النزعة يشرب ويطرب, ويعيش للذة وقته، ويهيجه حاضره, وفي بعض الأحيان كابن الرومي في برمه بالدنيا وسخطه على الناس, وفي بعض الأحيان يغلب عليه زهد أبي العتاهية))[37].

الخاتمـــة:

وفي الختام نستطيع أن نجمل أهم ما توصل إليه البحث في ما يأتي:

أولاً: اتسم شعر ابن حمديس في مرحلة الشيخوخة - أي مرحلة الزهد - بنغمة حزينة كئيبة تتمثل في حمله على نفسه وتوبيخها لها, وندمه على ما فاته في أيامه الخوالي وبكائه على ذنوبه.

ثانياً: إنَّ زهد ابن حمديس في الحياة لم يكن ناشئاً عن عقيدة اعتقدها أو منهجاً اختطه لنفسه, وإنَّما هو من الحالات العادية للاهين حين تتقدم بهم السن ويصبحون على حافة القبر، يتمظهر ذلك فيما ورد في شعره من ذكر القبر ووحشته، والسير على الصراط والحساب وأهواله.

ثالثاً: إنَّ بواعث وأسباب الزهد عديدة لا تقتصر على الوازع الديني والتربية الإسلامية, فقد يأخذ طابع ردة الفعل للعصر أو لظروف المرء الخاصة أو يأخذ سمة الرفض الفردي لموقف معين يكون اتباع الزهد فيه وسيلة للتعبير عن ذلك الرفض, وقد يكون بدافع الرهبة والخشية من الموت المنتظر, ولا سيما وقت الشيخوخة والهرم، معبراً بذلك عن حقيقة مفادها أن النجاة إنما تكون في ترك الدنيا والزهد فيها، وهكذا نجد أنَّ شعر الزهد عند شاعرنا قد تلون بتلون أطوار حياته وما مر به من أحداث

أتمنى أن أكون قد وفقت في ذلك وما التوفيق إلاّ بالله عليه توكلت واليه أنيب.

الهوامـــــش:

[1] - تأويل الشعر عند الصوفية (ابن عربي)، أمين يوسف عودة: 158 .
[2] - المصدر نفسه : 159 .
[3] - الرسالة القشيرية في علم التصوف، عبد الكريم القشري: 119 .
4- ينظر: البيئة الاندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف، د. سعد إسماعيل: 502 .
[5]- ينظر: تأريخ الادب الاندلسي - عصر الطوائف والمرابطين -، د. أحسان عباس: 130 .
[6] - اتجاهات الشعر الاندلسي الى نهاية القرن الثالث الهجري، د. نافع محمود: 212 .
[7] - ينظر: الادب الاتدلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، د. منجد مصطفى بهجت : 140 - 142, الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس، د. محمد مجيد السعيد: 259 - 268, في الادب الاندلسي : 118, اتجاهات الشعر الاندلسي الى نهاية القرن الثالث الهجري، د. نافع محمود: 212 - 217.
[8] - اتجاهات الشعر الاندلسي الى نهاية القرن الثالث الهجري، د. نافع محمود: 212 .
(*) كذا في الاصل, والصواب : مهمين .
[9]- في التصوف الاسلامي، فيولد إلين نيبكلسون، ترجمة: د. أبو العلا عفيفي: 2 .
[10] - اتجاهات الشعر الاندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، د. نافع محمود: 212 .
[11] - الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، د. محمد مجيد السعيد: 259 .

[12]- في الادب الاندلسي، د. جودت الركابي: 118 .
[13] - اتجاهات الشعر الاندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، د. نافع محمود: 212 .
[14] - ينظر: التصوف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى القرن الثالث الهجري، د. عبد الحكيم حسان: 188.
[15] - ينظر: ديوان ابن حمديس، تحقيق: د. احسان عباس: 3, في الادب الاندلسي، د. جودت الركابي: 100.
[16] - الديوان : 83-84 .
[17] - شعر الطبيعة في الادب العربي، د. سيد نوفل: 270-271 .
[18] - في الادب الاندلسي، د. جودت الركابي: 103 .
[19] - الديوان : 343 .
[20] - الديوان : 5 .
[21] - في الادب الاندلسي، د. جودت الركابي: 103 .
[22] - تأريخ الادب العربي في الاندلس، د. إبراهيم علي أبو الخشب: 332 .
[23] - اتجاهات الشعر الاندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، د. نافع محمود: 212 .
[24] - الديوان : 40 .
[25] - المصدر نفسه : 265 .
(*) يرى علماء النفس أنَّ التشاؤم ليس صفة من صفات الشخصية قدر ما هو سلوك خارج عنها, ناتج عن التأثير البيئي والظروف المحيطة فيه, والخبرات التي يمر بها الشخص، ينظر: التفاؤل والتشاؤم .
[26] - الديوان : 107 .
[27] - المصدر نفسه : 286 .
[28] - الديوان : 346 .
[29] - المصدر نفسه : 277 .
[30] - المصدر نفسه : 348 .
[31] - الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، د. محمد مجيد السعيد: 269 .
[32] - الديوان : 281 .
[33] - الديوان : 280-281 .
[34] - اتجاهات الشعر الاندلسي، إلى نهاية القرن الثالث الهجري، د. نافع محمود: 217 .
[35] - ينظر : الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، د. محمد مجيد السعيد: 260 .
[36] - تاريخ الادب العربي في الاندلس، د. إبراهيم على أبو الخشب: 334 .
[37]- تاريخ الادب العربي في الاندلس، د. إبراهيم على أبو الخشب: 334-335 .

المصادر والمراجع

1- اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري: د. نافع محمود, دار الشؤون الثقافية العامة, بغداد, ط1، 1990م .
2- الادب الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: د. منجد مصطفى بهجت, منشورات جامعة الموصل, نشر وطبع دار الكتب للطباعة والنشر, الموصل, (د. ط), 1988م .
3- البيئة الأندلسية واثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف: د. سعد اسماعيل, مطبعة نهضة مصر, (د. ط), 1978م .
4- تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين-: د. إحسان عباس, دار الثقافة, بيروت – لبنان، ط7, 1985م .
5- تأريخ الادب العربي في الاندلس, ابراهيم علي ابو الخشب, دار الفكر العربي ,مطبعة المدني, ط1, 1966م .
6- تأويل الشعر عند الصوفية (ابن العربي): امين يوسف عودة, رابطة الكتاب الاردنيين, (د. ط) 1995م .
7- التصوف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى القرن الثالث الهجري: د. عبد الحكيم حسان, مطبعة الرسالة, القاهرة, (د. ط)، 1954م .
8- التفاؤل والتشاؤم: يوسف ميخائيل أسعد, دار نهضة مصر للطباعة والنشر, الفجالة, القاهرة, (د. ط)، (د.ت).
9- ديوان ابن حمديس الصقلي (ت : 527هـ), صححه وقدم له د. احسان عباس, دار صادر للطباعة والنشر, بيروت, (د. ط)، 1960م .
10- الرسالة القشيرية في علم التصوف: تأليف عبد الكريم القشيري, تحقيق وإعداد معروف زريق, علي عبد الحميد بلطة جي, دار الجبل, بيروت, ط2, 1990م.
11- شعر الطبيعة في الادب العربي: د. سيد نوفل, القاهرة, (د. ط)، 1945م .
12- الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: د. محمد مجيد السعيد, دار الرشيد للنشر, سلسلة دراسات (161), 1980م.
13- في الأدب الأندلسي: د. جودة الركابي, دار المعارف, القاهرة, (د. ط)، 1960م .
14- في التصوف الإسلامي: نيولد إلين نيكلسون, ترجمة د. ابو العلا عفيفي مصر, ,(د. ط), 1947.

ابن حميدس الصقلي زاهدا)

أ. م. د. حسن هادي نور

Ibn Hamids al-Siqilli is an ascetic

Dr. Hassan Hadi Nour
Al-Muthanna University-College of Basic Education
the department of Arabic language
hasanhadi@mu.edu.iq
07801851353

Abstract

Asceticism is means to achieve high morality and perfection by triumphing over the soul, conquering its passions, suppressing its desires, resorting only to Allah and leaving worldly pleasures. Asceticism is an important and popular topic in Arab literature; therefore, this study has been conducted to shed light on the factors and causes of its popularity in Andalusia and the extent of its effect on Andalusia literature, making the poet, Ibn Hamad Yasin All- Siqli, its domain .So, the study is entitled" Ibn Hamad Yasin All-Siqli as an ascetic" . It has reached several findings including that Ibn Hamad Yasin's asceticism was not developed out of faith he adhered to or a line he set for himself, but it is a normal situation occurred to those reckless person when they grow old and become closer to the edge of grave . It also shows that the incentives and reasons of asceticism are numerous and are not restricted to the religious motives and Islamic tradition. Thus, it demonstrates that his poetry was colored according to the junctures of his life and the incidents he had come through.

Keywords: Ibn Hamdis, asceticism